القصص العالمية

شَبَحُ بَاسْكِرْفِيل






قَصْرُ بَاسْكِرْفِيل

آرْثَر كونَن دويل (١٨٥٩-١٩٣٠)

دَرَسَ في جامِعَةِ أدِنْبَرَة، ومارَسَ الطِّبَّ بَيْنَ عامَيْ ١٨٨٢ و١٨٩٠.

ولَقَدِ اشْتَهَرَ مِنْ أَعْمالِهِ ابْتِكارُهُ لِشَخْصِيَّةِ شرْلوك هولْمز، رَجُلِ التَّحَرّي الهاوي، الَّذي ظَهَرَ في سِلْسِلَةٍ مِنَ القِصَصِ، مِنْها: «مُغامَراتُ شرْلوك هولْمز» (١٨٩١) و«مُذَكِّراتُ شرْلوك هولْمز» (١٨٩٤). ومِنْ قِصَصِهِ أَيْضًا كِتابُهُ المَشْهورُ «العالَمُ المَفْقودُ» الَّذي نُشِرَ في العامِ ١٩١٢ والَّذي قامَتْ «مَكْتَبَةُ لُبْنانَ» بِتَقْديمِهِ إلى القُرّاءِ العَرَبِ ضِمْنَ سِلْسِلَةِ «القِصَص العالَمِيَّة» هٰذِهِ.

أمّا قِصَّةُ «شَبَح باسْكِرْفيل» الَّتي نُقَدِّمُها اليَوْمَ إلى القارِئِ العَرَبِيِّ، وبَطَلُها أَيْضًا رَجُلُ التَّحَرّي شرْلوك هولْمز، فَقَدْ صَدَرَتْ في العامِ ١٩٠٢. إنَّها قِصَّةُ مُغامَراتٍ مُشَوِّقَةٍ يَشْعُرُ مَعَها القارِئُ أَنَّهُ وَسْطَ عالَمٍ مِنَ الغُموضِ المُثيرِ، وتَزْدادُ الأُمورُ غُموضًا مَعَ تَطَوُّرِ أَحْداثِ القِصَّةِ، إلى أَنْ تَصِلَ إلى ذُرْوَةِ الإثارَةِ فتَأْخُذَ عِنْدَئِذٍ بِالمَيْلِ شَيْئًا فشَيْئًا نَحْوَ الاِنْكِشافِ. ويُبْدي المُؤَلِّف بَراعَةً لا مَثيلَ لَها عِنْدما يَجْعَلُ أَحْداثَ الجَريمَةِ الَّتي يَحْكي لَنا قِصَّتَها تَدورُ في جَوٍّ مِنَ الخُرافاتِ المُخيفَةِ المُتَوارَثَة، فلا يَعْرِفُ القارِئُ هَلْ هُوَ في مُواجَهَةِ جَريمَةٍ عادِيَّةٍ أَمْ في مُواجَهَةِ عالَمٍ مِنَ الأَشْباحِ والأَرْواحِ.

سِلْسِلَة «القِصَص العالَمِيَّة»

١- جَزيرَةُ الكَنْز
٢- أُسْرَةُ روبنسُن السّويسرِيَّة
٣- الحَديقة السِّرِّيَّة
٤- رِحْلة إلى باطِنِ الأَرْضِ
٥- قِصَّةُ مَدينَتَيْن
٦- العالَمُ المَفْقود
٧- الفُرْسانُ الثَّلاثَة
٨- شَبَحُ باسْكِرْفيل
٩- كُنوزُ المَلِكِ سُلَيْمان
١٠- حَوْلَ العالَمِ في ثَمانينَ يَوْمًا
١١- أُنْشودَةُ العيد
١٢- الرّيحُ والصَّفْصاف

القصص العالمية

شبح باسكرفيل



إعداد : الدكتور ألبير مطلق
عن قصة : آرثر كونن دويل
رسوم : دروري لين

مكتبة لبنان



شَبَحُ باسْكِرْفيل

واجَهَ صَديقي شَرْلوك هولْمز عَدَدًا مِنَ القَضايا الغامِضَةِ، لَكِنَّ هَذِهِ الَّتي سَأَرْويها لَكُمْ أَكْثَرُها غُموضًا وتَعْقيدًا.

بَدأَتِ القَضِيَّةُ بِدايَةً عادِيَّةً في صَباحِ يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ سِبْتَمْبَر مِنْ عامِ ١٨٩٠. فَقَدْ وَقَفَ هولْمز في شَقَّتِهِ اللَّنْدَنِيَّةِ، وبَيْنَ يَدَيْهِ وَرَقَةٌ صَفْراءُ باهِتَةٌ عَتيقَةٌ تَتَصَدَّرُها عِبارَةُ: «قَصْر باسْكِرْفيل ١٧٤٢». أَخْبَرَني أَنَّ رَجُلًا يُسَمَّى جيمْس مورْتِمَر قَدْ تَرَكَها مَعَهُ لإِلْقاءِ نَظْرَةٍ عَلَيْها. وقالَ: «إِنَّهُ طَبيبٌ، مِثْلُكَ يا واطْسُن. وسَيَأْتيني بِنَفْسِهِ هَذا الصَّباحَ.» تَتَحَدَّثُ تِلْكَ الوَرَقَةُ الباهِتَةُ عَنِ اللَّعْنَةِ الَّتي حَلَّتْ بآلِ باسْكِرْفيل وكَيْفَ بَدَأَتْ تِلْكَ اللَّعْنَةُ.

مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، كانَ سَيِّدُ قَصْرِ باسْكِرْڤيل الواقِعِ عَلى أَطْرافِ بَراري ديفُن السَّبِخَةِ (المُسْتَنْقَعِيَّةِ) رَجُلًا مُتَهَوِّرًا قاسِيًا يُسَمَّى السّير هيوجو باسْكِرْڤيل. وقَدْ أُولِعَ السّير هيوجو بِابْنَةِ مُزارِعٍ تَعيشُ غَيْرَ بَعيدٍ عَنِ القَصْرِ. غَيْرَ أَنَّ الفَتاةَ كانَتْ تَخْشى هيوجو لِما كانَ عَلَيْهِ مِنْ سوءِ الخُلُقِ، ولَمْ تَكُنْ تَرْغَبُ أَنْ يَكونَ لَها مَعَهُ أَيُّ شَأْنٍ.





وفي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ البارِدَةِ المُكْفَهِرَّةِ، أَقْدَمَ السّير هيوجو بِمُساعَدَةِ نَفَرٍ مِنْ أَصْحابِهِ عَلى اخْتِطافِ الصَّبِيَّةِ مِنْ بَيْتِها في أَثْناءِ غِياب أَبيها وإِخْوَتِها عَنِ المَزْرَعَةِ. اِقْتادوها إلى قَصْرِ باسْكِرْڤِيل واحْتَجَزوها في غُرْفَةٍ عُلْوِيَّةٍ. وفي المَساءِ راحَ السّير هيوجو وصَحْبُهُ يُعَرْبِدونَ ويُغَنّونَ ويَضِجّونَ، فَدَبَّ الرُّعْبُ في قَلْبِ الفَتاةِ. فَتَحَتِ النّافِذَةَ، وتَعَلَّقَتْ بِالنّباتاتِ المُتَسَلِّقَةِ الَّتي تَمْتَدُّ عَلى جِدارِ القَصْرِ، وهَبَطَتْ إلى السّاحَةِ الخارِجِيَّةِ، وراحَتْ تَرْكُضُ نَحْوَ بَيْتِها وَسْطَ بَرارٍ يُضيئُها القَمَرُ.

عِنْدَما عَلِمَ هيوجو بِاخْتِفاءِ الفَتاةِ أُصيبَ بِنَوْبَةٍ مِنَ الهِياجِ الشَّديدِ. وأَقْسَمَ أَنْ يَهَبَ جَسَدَهُ وروحَهُ إلى الشَّيْطانِ إذا هُوَ تَمَكَّنَ مِنَ الإِمْساكِ بِالفَتاةِ. وأَجْفَلَ (أَسْرَعَ وهَرَبَ) صَحْبُهُ العابِثونَ وتَراجَعوا عَنْهُ مَذْعورينَ.

اِنْدَفَعَ هيوجو إلى الإسْطَبْلاتِ، فأَطْلَقَ كِلابَ صَيْدِهِ، وامْتَطى جَوادًا راحَ يَعْدو بِهِ عَدْوًا مَحْمومًا لِيَلْحَقَ بِالفَتاةِ.

اِسْتَرَدَّ صَحْبُهُ، بَعْدَ حينٍ، جَأْشَهُمْ، فامْتَطى نَفَرٌ مِنْهُمْ جِيادَهُمْ، وسَعَوا وَراءَ هيوجو لَعَلَّهُمْ يَتَمَكَّنونَ مِنْ إنْقاذِ الفَتاةِ.

رَأى الرِّجالُ، بَعْدَ ميلٍ أَوْ ميلَيْنِ مِنِ انْطِلاقِهِمْ، راعِيًا لَيْلِيًّا. وكانَ الرّاعي في حالَةٍ مِنَ الذُّهولِ تَكادُ لا تَسْمَحُ لَهُ بِالنُّطْقِ. لكِنَّهُ تَمَكَّنَ أَخيرًا مِنْ أَنْ يَقولَ لَهُمْ: «رَأَيْتُ هيوجو باسْكِرْفِيل يَمُرُّ مِنْ هُنا عَلى جَوادِهِ، ورَأَيْتُ كَلْبًا أَسْوَدَ ضَخْمًا مِنْ كِلابِ جَهَنَّمَ يَرْكُضُ وَراءَهُ.»





واصَلَ الرِّجالُ رُكوبَهُمْ. وسُرْعانَ ما سَمِعوا صَوْتَ جَوادٍ يَعْدو، ثُمَّ بَرَزَ فَرَسُ هيوجو مِنْ قَلْبِ اللَّيْلِ وقَدِ امْتَلأَ فَمُهُ زَبَدًا، وخَلا ظَهْرُهُ مِنْ فارِسِهِ.

دَبَّ الذُّعْرُ في قُلوبِ الرِّجالِ فَرَكِبوا مُتلاصِقينَ. ثُمَّ رَأَوا في فُسْحَةٍ مِنَ الأَرْضِ كِلابَ هيوجو تَنْتَفِضُ ذُعْرًا وَقَدْ تَلاصَقَ بَعْضُها بِبَعْضٍ.

وفي وَسَطِ الفُسْحَةِ رَأَوا الفَتاةَ قَتيلَةً. وإلى جانِبِها رَأَوا هيوجو باسْكِرْفيل وَقَدِ انْتَصَبَ فَوْقَهُ الوَحْشُ الأَسْوَدُ الضَّخْمُ الَّذي اتَّخَذَ شَكْلَ كَلْبٍ. مَزَّقَ الوَحْشُ عُنُقَ ضَحِيَّتِهِ على مَرْأًى مِنَ الرِّجالِ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَيْهِمْ بِعَيْنَيْهِ النّارِيَّتَيْنِ وفَكَّيْهِ المُتَحَلِّبَيْنِ (سائِلي الرِّيقِ). فاسْتَدارَ الرِّجالُ وَوَلَّوا الأَدْبارَ وَهُمْ يَصْرُخون مَذْعورينَ.

اِنْتَقَلَتْ لَعْنَةُ باسْكِرْفِيل، مُنْذُ ذَلِكَ الحينِ، مِنْ أَبٍ إلى ابْنٍ. وماتَ كَثيرونَ مِيتَةً عَنيفَةً غامِضَةً. وأولَئِكَ الَّذينَ سيأْتونَ مِنْ بَعْدُ يُحَذَّرونَ أَلّا يَعْبُروا بَراري ديفُن وَحيدينَ في ساعاتِ الظَّلامِ حينَ يَكونُ الكَلْبُ - الشَّيْطانُ في مكانٍ قَريبٍ. هُنا تَنْتَهي الوَرَقَةُ.



وَصَلَ الدّكْتور مورْتِمَر، فأَعادَ إِلَيْهِ هولْمز المَخْطوطَةَ قائلًا إِنَّهُ لا يَهْتَمُّ بِالحِكاياتِ الخُرافِيَّةِ.

أَسْرَعَ مورْتِمَر يَقولُ: «صَبْرًا! مِنَ الضَّروريِّ أَنْ تَعْرِفَ مُحْتَوياتِ الوَثيقَةِ قَبْلَ أَنْ أَسْرُدَ عَلَيْكَ تَفاصيلَ مَوْتِ صَديقي السّير تشارلْز قَبْلَ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ، وَهْوَ الضَّحِيَّةُ الأَخيرَةُ مِنْ ضَحايا باسْكِرْڤيل.» ثُمَّ أَخبَرَنا كَيْفَ أَنَّ تَصَرُّفَ السّير تشارلْز في الأَسابيعِ الأَخيرَةِ كانَ غَريبًا. فَقَدْ كانَ مُقْتَنِعًا أَنَّ لَعْنَةَ الكَلْبِ - الشَّيْطانِ قَدْ حَلَّتْ عَلَيْهِ فَلَمْ يَعُدْ يَجْرُؤ عَلى دُخولِ البَراري لَيْلًا. وكَثيرًا ما كانَ يَسْأَلُ مورْتِمَر عَمّا إذا كانَ رَأى أَيَّ مَخْلوقاتٍ غَريبَةٍ أَوْ سَمِعَ نُباحَ كَلْبٍ. وبَدا أَنَّ قَلْبَهُ الضَّعيفَ لَنْ يَحْتَمِلَ كُلَّ ذَلِكَ الضَّغْطِ. وأَصْبَحَ مِنْ عادَتِهِ المَشْيُ لَيْلًا، فَيَنْطَلِقُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ القَصْرِ، ويَسيرُ عَلى الأَرْضِ المَفْروشَةِ بالحَصْباءِ، دونَ أَنْ يَتَجاوَزَ البَوّابَةَ الخارِجِيَّةَ أَبَدًا.

وفي لَيْلَةٍ مِنْ لَيالي يونْيَة، وَجَدَ مُدَبِّرُ المَنْزِلِ باريمور جُثَّةَ سَيِّدِهِ مُمَدَّدَةً خارِجَ البَوّابَةِ. ولَمْ يُعْثَرْ فَوْقَ الحَصْباءِ النّاعِمَةِ إلّا على آثارِ أَقْدامِ السّير تشارلْز وباريمور دونَ سِواها. لَكِنْ، قَريبًا مِنَ البُقْعَةِ الَّتي وَقَعَ فيها السّير تشارلْز مَيِّتًا بَدا وكَأَنَّ الرَّجُلَ كانَ قَدْ شَرَعَ يَمْشي على رُؤوسِ أَصابِعِهِ.



تابَعَ الدُّكْتورُ مورْتِمرَ كلامَهُ قائلًا: «اِسْتُدْعيتُ فَفَحَصْتُ الجُثَّةَ ولَمْ أَجِدْ فيها أَثَرًا لِلعُنْفِ، لَكِنْ رَأَيْتُ على الوَجْهِ مَلامِحَ رُعْبٍ شَديدٍ. ماتَ بِالسَّكْتَةِ القَلْبِيَّةِ! لَقَدْ ذَكَرَ لي باريمور أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَوْلَ الجُثَّةِ عَلاماتٌ مُمَيَّزَةٌ، لَكِنّي رَأَيْتُ عَلاماتِ



فَوْقَ العُشْبِ عَلى بُعْدِ عِشْرينَ خُطْوَةً، ثُمَّ جاءَ المَطَرُ العاصِفُ فَمَحاها.»

حَدَّقَ هولْمز في مورْتِمَر، وقَدْ بَدا في عَيْنَيْهِ بَريقُ الِاهْتِمامِ، وقالَ: «أَكانَتْ تِلْكَ العَلاماتُ آثارَ أَقْدامٍ؟»

«نَعَمْ.»

«آثارُ رَجُلٍ أَمِ امْرَأَةٍ؟»

تَطَلَّعَ الدّكْتورُ مورْتِمَر إِلَيْنا بِنَظْرَةٍ غَريبَةٍ، ثُمَّ قالَ بِما يُشْبِهُ الهَمْسَ: «يا سَيِّدُ هولْمز، لَقَدْ كانَتْ آثارَ كَلْبٍ عِمْلاقٍ.»

دَبَّتْ قُشَعْريرَةٌ في جَسَدي، وتَطَلَّعَ هولْمز إِلى الرَّجُلِ وقالَ: «وماذا تُريدُني أَنْ أَفْعَلَ، يا دكْتور مورْتِمَر؟»

«أَرْغَبُ في نَصيحَتِكَ. فَبَعْدَ ساعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ يَصِلُ لَنْدَنَ السّير هَنْري باسْكِرْڤيل قادِمًا مِنْ كَنَدا. إِنَّهُ ابْنُ شَقيقِ السّير تشارلْز الأَصْغَرِ، وآخِرُ مَنْ تَبَقّى مِنْ أُسْرَةِ باسْكِرْڤيل.» ثُمَّ أَضافَ الدّكتور مورْتِمَر يَقولُ إِنَّهُ كانَ يَعيشُ في البَرازيلِ شَخْصٌ آخَرُ مِنْ آلِ باسْكِرْڤيل، ولَكِنَّهُ ماتَ هُناكَ مُنْذُ بِضْعِ سِنينَ بِوَباءِ الكوليرا.

«أَتَعْتَقِدُ، يا سَيِّد هولْمز، أَنَّ دارتْمور مَكانٌ آمِنٌ لِرَجُلٍ مِنْ أُسْرَةِ باسْكِرْڤيل؟ نَحْنُ نَأْمُلُ أَنْ يَعيشَ السّير هَنْري بَيْنَنا لِيُتابِعَ سيرَةَ عَمِّهِ السّير تشارلْز، في خِدْمَةِ البَلَدِ ونُصْرَةِ الفُقَراءِ.»

«أرى أن تَسْتَقْبِلَ السّير هَنْري عِنْدَ وُصولِهِ المَدينَةَ وأَنْ تَأْتيَ بِهِ إِلَيَّ اليَوْمَ بَعْدَ الظُّهْرِ. واسْمَحْ لي بِسُؤالٍ أَخير: بَعْضُ النّاسِ رَأَوا الكَلْبَ قَبْلَ وَفاةِ السّير تشارلْز، فَهَلْ رَآهُ أَحَدٌ بَعْدَ وَفاتِهِ؟»

«لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ، يا سَيِّدُ هولْمز.»

بَعْدَ خُروجِ الدّكْتور مورْتِمَر، سَأَلْتُ هولْمز عَنِ السَّبَبِ الّذي جَعَلَ السّير تشارلْز قُبَيْلَ وَفاتِهِ يَمْشي فَوْقَ الحَصى عَلى رُؤوسِ أَصابِعِهِ. فَأَجابَني بلا تَرَدُّدٍ: «هُراءٌ، يا واطْسُن. لَقَدْ كانَ يَجْري لِلنَّجاةِ بِحياتِهِ. لَكِنْ مِمّا كانَ هارِبًا؟ تِلْكَ هِيَ المَسْأَلَةُ!»

اِنْتَظَرْنا وُصولَ السّير هَنْري باسْكِرْفيل. وبَعْدَ الظُّهْرِ دَخَلَ عَلَيْنا



الدّكْتورُ مورْتِمَر يُرافِقُهُ السّير هَنْري، فإذا هُوَ رَجُلٌ لَطيفٌ مَتينُ البِنْيَةِ في حُدودِ الثّلاثينَ مِنْ عُمْرِهِ.

أَنْصَتَ السّير هَنْري بإمْعانٍ إلى الدّكْتور مورْتِمَر وَهُوَ يَرْوي ما يَعْرِفُهُ عَنْ لَعْنَةِ آلِ باسْكِرْفيل. ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ هادئٍ حازِمٍ إِنَّهُ لا يُؤْمِنُ باللَّعَناتِ والخُرافاتِ، وإِنَّهُ ما مِنْ شَيْءٍ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ يَسْتَطيعُ أَنْ يَحولَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الذَّهابِ إلى قَصْرِ باسْكِرْفيل. فقالَ هولْمز: «الأَمْرُ لَكَ. لَكِنْ يَنْبَغي أَنْ تَصْطَحِبَ واطْسُن.»

في اليَوْمِ التّالي سافَرْتُ أَنا والسّير هَنْري والدّكْتور مورْتِمَر إلى ديفُن بِواسِطَةِ القِطارِ. وكانَ عَلى هولْمز أَنْ يَمْكُثَ في لَنْدَنَ بِضْعَةَ أَيّامٍ لِاسْتِقْصاءِ قَضِيَّةٍ ذاتِ خَطَرٍ. اِسْتَمْتَعْتُ بِالرِّحْلَةِ وتَجاذَبْتُ مَعَ السّير هَنْري والدّكْتور مورْتِمَر الأَحاديثَ فأَسَرا قَلْبي.





عِنْدَ وُصولِ القِطارِ إلى المَحَطَّةِ الصَّغيرَةِ في ديفُن وَجَدْنا في انْتِظارِنا عَرَبَةً مَكْشوفَةً يَجُرُّها حِصانانِ. وسُرْعانَ ما سارَ بِنا السّائِقُ في ذَلِكَ المَساءِ المُلَوَّنِ بِالشَّفَقِ في الطَّريقِ المُحاذي لِلبَراري. اِمْتَدَّ الطَّريقُ أَمامَنا في ضَوْءِ الشَّمْسِ المائِلَةِ إلى المَغيبِ، وهَبَّتْ ريحٌ بارِدَةٌ أصابَتْنا بِرِعْشَةٍ. وبَدا أَنَّ الأَرْضَ اليَبابَ (الخَرابَ) مِنْ حَوْلِنا، والرّيحَ البارِدَةَ، والعَتَمَةَ الزّاحِفَةَ جَعَلَتْنا كُلُّها نَلوذُ بِالصَّمْتِ.

فَجْأَةً مَدَّ السّائِقُ سَوْطَهُ إلى بَعيدٍ وقالَ: «قَصْر باسْكِرْڤيل.» وبَعْدَ دَقائِقَ وَصَلْنا إلى كوخِ حارِسِ الأَمْلاكِ. ثُمَّ عَبَرْنا مَمَرًّا داخِلِيًّا تَحُفُّ بِهِ الأَشْجارُ، وبَدا القَصْرُ في آخِرِ المَمَرِّ أَشْبَهَ بِشَبَحٍ مُنْتَصِبٍ.

خَرَجَ مُدَبِّرُ المَنْزِلِ، باريمور، مِنَ القَصْرِ لِلتَّرْحيبِ بِنا. وتابَعَ السّائِقُ طَريقَهُ لِيُوْصِلَ الدّكْتور مورْتِمَر إلى مَنْزِلِهِ.

كانَتِ الجَوانِبُ الدّاخِلِيَّةُ لِلقَصْرِ كَثيرَةَ الظِّلالِ مُعْتِمَةً. فقالَ السّير هَنْري: «لَيْسَ هذا مَكانًا بَهيجًا.» تَناوَلْنا طَعامَ العَشاءِ ثُمَّ أَوى كُلٌّ مِنّا إلى فِراشِهِ. وبَدَتْ لي البَراري مِنْ نافِذَةِ غُرْفَةِ النَّوْمِ رُقْعَةً بارِدَةً مِنَ الأَرْضِ، شاحِبَةً لا تُوْحي بِالاِطْمِئْنانِ. وفي جَوِّ السُّكونِ والأَشْباحِ لَمْ يَعْرِفِ الكَرى طَريقَهُ إلى عَيْنَيَّ إلّا بَعْدَ انْتِظارٍ طَويلٍ.



حينَ جَلَسْتُ أنا والسّير هَنْري إلى مائِدَةِ الفُطورِ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، كانَ جانِبٌ مِنَ الانْقِباضِ قدْ زايَلَنا، وساعَدَ عَلى ذَلِكَ ضَوْءُ الشَّمْسِ الَّذي تَدَفَّقَ مِنَ النَّوافِذِ. كانَ عَلى السّير هَنْري أنْ يوْلِيَ بَعْضَ الأُمورِ عِنايَتَهُ، فانْطَلَقْتُ أَمْشي بِمُحاذاةِ البَراري. مَشَيْتُ بِضْعَةَ كيلومِتْراتٍ، وفَجْأَةً سَمِعْتُ صَوْتًا يُناديني بِاسْمي. وكانَ صاحِبُ الصَّوْتِ رَجُلًا بَيْنَ الثَّلاثينَ والأَرْبَعينَ مِنَ العُمْرِ، يَحْمِلُ شَبَكَةً لِالْتِقاطِ الفَراشاتِ وعُلْبَةً لِجَمْعِها.

قَدَّمَ نَفْسَهُ بِاسْمِ جاك ستابِلْتُن، وَذكَرَ أَنَّهُ عَرَفَني مِمّا تَحَدَّثَ بِهِ عَنّي صَديقُهُ الدّكْتور مورْتِمَر. وقالَ: «أُحِبُّ البَراريَ، لَكِنّي حَديثُ العَهْدِ بِهَذا المَكانِ، فَلَمْ أَجِئْ إلى هُنا إلّا مُنْذُ عامَيْنِ.»

بَيْنَما كانَ يُحَدِّثُني ارْتَفَعَتْ صَرْخَةُ أَلَمٍ رَدَّدَتْ صَداها البَراري. فدَبَّ الهَلَعُ في قَلْبي. وبَدا أَنّ أَعْصابَ ستابِلْتُن أَقْوى مِنْ أَعْصابي، فَقَدْ قالَ بِهُدوءٍ: «إِنَّهُ فَرَسٌ بَرِّيٌّ عَلِقَ في رِمالِ المُسْتَنْقَعِ المُتَحَرِّكَةِ.» رَأَيْتُ مِنْ بَعيدٍ ذَلِكَ الفَرَسَ البائِسَ يَغوصُ تَدْريجِيًّا في الرِّمالِ. وبَدا رَأْسُهُ أَخيرًا يَنْتَفِضُ في يَأْسٍ وَهْوَ يَغوصُ بَطيئًا في الرِّمالِ.

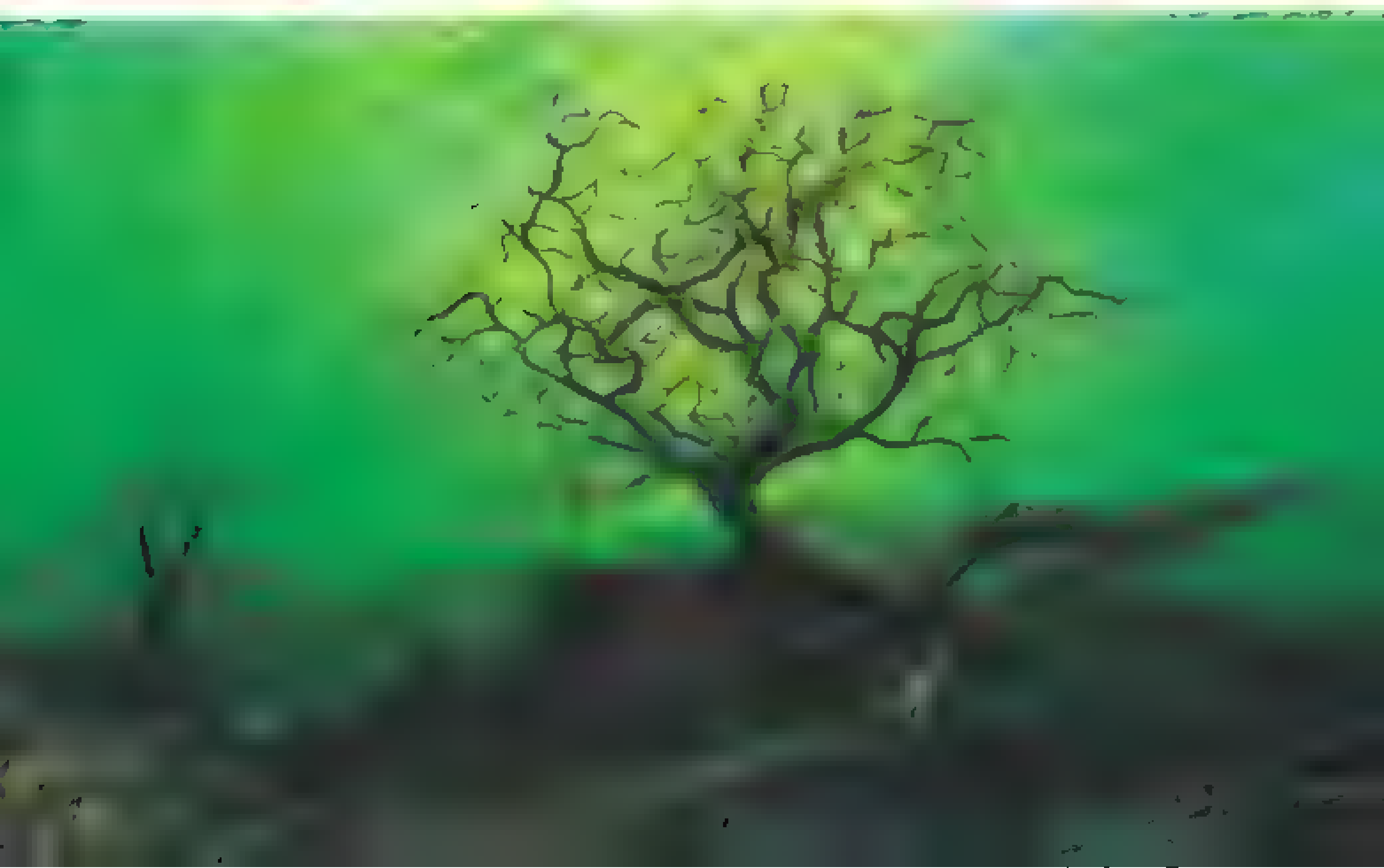
قالَ ستابِلْتُن بِصَوْتٍ هادِئٍ: «هَذا المُسْتَنْقَعُ خَطِرٌ. أَنا أَعْرِفُ طَريقي إلى حَيْثُ أَجِدُ الفَراشاتِ النّادِرَةَ. فاقْبَلْ نُصْحي ولا تَقْتَرِبْ مِنْ هَذا المَكانِ.» وبَدا كُلُّ شَيْءٍ ساكِنًا صامِتًا ما عَدا غُرابَيْنِ كانا عَلى صَخْرَةٍ خَلْفَنا. فَجْأَةً، مَزَّقَ البَراريَ أَنينٌ طَويلٌ عَميقٌ.



تَطَلَّعَ ستابِلْتُن إلَيَّ وَقَدِ ارْتَسَمَ عَلى وَجْهِهِ تَعْبيرٌ غَريبٌ، وتَمْتَمَ: «يُقالُ إنَّهُ وَحْشُ باسْكِرْڤيل يَصْرُخُ طالِبًا فَريسَةً. سَمِعْتُ صَوْتَهُ مِنْ قَبْلُ، لَكِنْ لَيْسَ بِالقُوَّةِ الَّتي سَمِعْتُها الآنَ.» تَلَفَّتُّ حَوْلي وَقَدِ انْتَفَضَ قَلْبي فَزَعًا. أَمّا ستابِلْتُن فَلَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَأَثَّرَ بِما سَمِعَ.

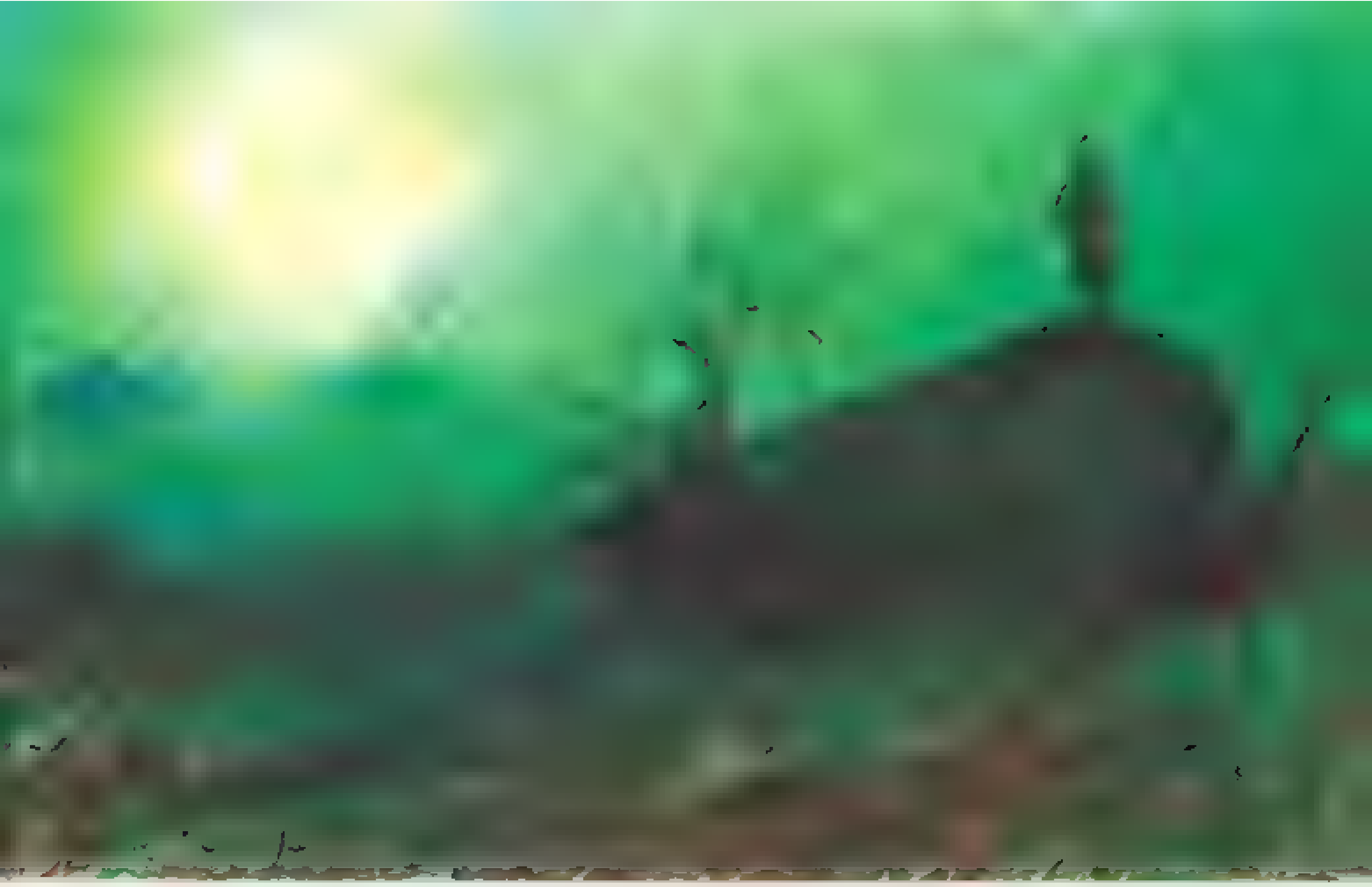
عَكَّرَ مِزاجي مَوْتُ الفَرَسِ والصَّوْتُ الغَريبُ الشَّبيهُ بِصَوْتِ الكَلْبِ. فَعُدْتُ إلى قَصْرِ باسْكِرْڤيل وقَدِ امْتَلأَ رَأْسي بِمَخاوِفَ غامِضَةٍ.

زارَنا ستابِلْتُن في اليَوْمِ التّالي، فاصْطَحَبَنا أنا والسّير هَنْري إلى البَراري، وأَرانا البُقْعَةَ الَّتي جاءَ في الأُسْطورَةِ أَنَّ السّير هيوجو الشِّرّيرَ ماتَ فيها. وكانَ مَكانًا مُوْحِشًا كَئيبًا! وَلَفَتَ انْتِباهي أَنَّ ستابِلْتُن بَدا مُتَلَهِّفًا عَلى مُلاطَفَةِ السّير هَنْري.





في اليَوْمِ التّالي ذَهَبْتُ أَنا والسّير هَنْري إلى البَلْدَةِ المُجاوِرَةِ سَيْرًا عَلى الأَقْدامِ. مَكَثْنا في بَيْتِ الدّكْتور مورْتِمَر بَعْضَ الوَقْتِ، نَتَحَدَّثُ، وعِنْدَما شَرَعْنا في طَريقِ العَوْدَةِ كانَ الشَّفَقُ يُلَوِّنُ البَراريَ. هَبَطَ الظَّلامُ، وكُنّا لا نَزالُ في المَمَرِّ الضَّيِّقِ كَثيرِ الأَشْجارِ، فَذَكَرَ السّير هَنْري مازِحًا أَنَّ الأُسْطورَةَ تُحَذِّرُ كُلَّ مَنْ تَحَدَّرَ مِنْ آلِ باسْكِرْفيل مِنْ عُبورِ البَراري لَيْلًا. في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، ارْتَفَعَ مِنْ قَلْبِ الظَّلامِ ذَلِكَ الصُّراخُ الغَريبُ الَّذي سَمِعْتُهُ حينَ كُنْتُ مَعَ ستابِلْتُن، وكَأَنَّما جاءَ جَوابًا عَلى كَلِماتِ السّير هَنْري. بَدا الفَزَعُ في نَبْرَةِ مُحَدِّثي وَهْوَ يَقولُ: «يا إلَهي! إنَّهُ صَوْتُ كَلْبٍ، يا واطْسُن! أَشْعُرُ بِالقُشَعْريرَةِ تَدِبُّ في جَسَدي. أَأَنا حَقًّا في خَطَرٍ؟»



أَلْحَحْتُ عَلى السّير هَنْري أَنْ يُعَجِّلَ في السَّيْرِ. وبَيْنا نَحْنُ نَمْشي جادَّيْنِ لاحَتْ مِنّي الْتِفاتَةٌ إلى بَعيدٍ فَلَمَحْتُ شَبَحَ رَجُلٍ مُتَّشِحٍ بِالسَّوادِ يَقِفُ عَلى صَخْرَةٍ ضَخْمَةٍ، وَقَدْ بَدا وَكَأَنَّهُ يُراقِبُنا. بَدَرَتْ منّي صَيْحَةٌ وأَنا أَلْفِتُ انْتِباهَ السّير هَنْري إلى الشَّبَحِ. وفي اللَّحْظَةِ الَّتي اسْتَغْرَقَها تَلَفُّتُ السّير هَنْري إلى الصَّخْرَةِ اخْتَفى الرَّجُلُ. لكنّي لَمْ أَكُنْ مُخْطِئًا، فَقَدْ رَأَيْتُهُ، وسُرْعانَ ما كُنْتُ سَأَجِدُ عِنْدَ باريمور بُرْهانًا عَلى ما رَأَيْتُ.

وَجَدْتُ باريمور، عِنْدَ وُصولِنا إلى قَصْرِ باسْكِرْفيل، في انْتِظاري. قالَ لي إنَّ رَجُلًا غَريبًا يَخْتَبِئُ في أَحَدِ الأَكْواخِ الحَجَرِيَّةِ المَهْجورَةِ، وإنَّ فَتًى في القَرْيَةِ يَذْهَبُ إلى البَراري يَوْمِيًّا حامِلًا إلَيْهِ الطَّعامَ.

رَأَيْتُ باريمور مُضْطَرِبًا وَهْوَ يَقولُ: «كَأَنَّهُ لا يَكْفي ما في البَراري مِنْ مَخوفاتٍ فَجاءَ هَذا الغَريبُ يَتَرَبَّصُ لَيْلًا ويُراقِبُ!» وبَدا أَنَّنا كِلَيْنا بَدَأْنا نَرْبِطُ بَيْنَ هَذا الغَريبِ وأُسْطورَةِ الكَلْبِ - الشَّبَحِ. وكُنّا قَلِقَيْنِ عَلى سَلامَةِ السّير هَنْري.

اِتَّخَذْتُ قَرارًا! في اليَوْمِ التّالي حَمَلْتُ مُسَدّسي واتَّجَهْتُ، بَعْدَ الغَداءِ مُباشَرَةً، إلى مِنْطَقَةِ الأَكْواخِ الحَجَرِيَّةِ المَهْجورَةِ. فَتَّشْتُ الأَكْواخَ واحِدًا واحِدًا إلى أَنْ وَجَدْتُ في أَحَدِها بِضْعَ بَطانِيّاتٍ ودَلْوَ ماءٍ وبَعْضَ المُعَلَّباتِ الفارِغَةِ وأَطْعِمَةً أُخْرى. كُنْتُ واثِقًا أَنّي وَصَلْتُ إلى مَخْبَإِ الرَّجُلِ الغَريبِ.



كانَ قَدْ مَرَّ جانِبٌ مِنْ فَتْرَةِ ما بَعْدَ الظُّهْرِ، فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُ عَوْدَةَ الغَريبِ، جاعِلًا المُسَدَّسَ في مُتَناوَلِ يَدي. مَرَّتْ ساعَةٌ مِنَ الزَّمَنِ ثُمَّ سَمِعْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ، فأَسْرَعْتُ إلى زاوِيَةٍ مُعْتِمَةٍ مِنْ زَوايا الكوخِ وحَمَلْتُ مُسَدّسي ووَضَعْتُ إصْبَعي عَلى الزِّنادِ.

تَوَقَّفَ الغَريبُ خارِجَ بَوّابَةِ الكوخِ. مَرَّتْ لَحَظاتٌ مِنَ الصَّمْتِ. ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا يَقولُ: «اُخْرُجْ، يا واطْسُن، فالمَساءُ جَميلٌ!» لَمْ أُصَدِّقْ، لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، أُذُنَيَّ.



صِحْتُ: «هولْمز!»

قالَ:«تَعالَ، واتْرُكْ ذَلِكَ المُسَدَّسَ!»

غَمَرَني الفَرَحُ لِرُؤْيَتِهِ. وأَخْبَرَني أَنَّه أَرادَ أَنْ يُوْهِمَ الجَميعَ، ويُوهِمَني أنا أَيْضًا، أَنَّهُ في لَنْدَن. لَكِنَّهُ في الواقِعِ لَحِقَنا إلى ديفُن في القِطارِ التّالي، وأَنَّهُ اخْتَبَأَ في البَراري لِيَكونَ قادِرًا عَلى مُراقَبَةِ المَكانِ مُراقَبَةً دَقيقَةً.





اِسْتَفْسَرَ مِنّي هولْمز عَمّا فَعَلْتُ، وعَنِ الأَماكِنِ الَّتي زُرْتُها والأَشْخاصِ الَّذينَ قابَلْتُهُمْ. كانَ يُنْصِتُ بِاهْتِمامٍ، وعِنْدَما جِئْتُ عَلى ذِكْرِ ستابِلْتُن أَسْرَعَ هولْمز يَقولُ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ بَريئًا كَما يوحي مَظْهَرُهُ.

قُلْتُ: «ما الَّذي تَقْصِدُهُ؟»

أَجابَ هولْمز: «إِنَّهُ يُخْفي وَراءَ ذَلِكَ الوَجْهِ الهادِئِ شَخْصِيَّتَهُ الحَقيقِيَّةَ. إِنَّهُ قاتِلٌ يُعِدُّ لِلجَريمَةِ إِعْدادًا. لَنْ أَشْرَحَ لَكَ التَّفاصيلَ الآنَ، لَكِنّي أُخَطِّطُ لِلإِطْباقِ عَلَيْهِ مِثْلَما يُخَطِّطُ هُوَ لِلإِطْباقِ عَلى السّير هَنْري. الشَّيْءُ الوَحيدُ الَّذي أَخافُهُ هُوَ أَنْ يَسْبِقَني فَيَضْرِبَ أَوَّلًا. سَأَكونُ قادِرًا، بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، عَلى فَضْحِ أَمْرِهِ.»

أَوْضَحَ لي أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ مُحْتاجًا إلى البَقاءِ في الخَفاءِ، فَعُدْنا مَعًا إلى قَصْرِ باسْكِرْفيل. سُرَّ السّير هَنْري كَثيرًا لِرُؤْيَةِ شَرْلوك هولْمز، وقالَ: «أَيْنَ وَصَلْتَ في تَحَرِّياتِكَ، يا سَيِّدُ هولْمز؟ هَلْ تَرى نورًا يَكْشِفُ شَيْئًا مِنْ هَذا الغُموضِ؟» أَجابَ هولْمز أَنَّ المَسْأَلَةَ سَتُحَلُّ قَريبًا، وأَنَّ عَلى السّير هَنْري أَنْ يُنَفِّذَ ما يُطْلَبُ مِنْهُ دونَ إلْحاحٍ في طَلَبِ الأَسْبابِ. وافَقَ السّير هَنْري عَلى رَغْبَةِ هولْمز، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ واتَّجَهَ إلى غُرْفَتِهِ.



اِنْتَقَلْتُ أَنا وهولْمز إلى غُرْفَةِ الطَّعامِ، وَرُحْنا نَتَأَمَّلُ صُوَرَ آلِ باسْكِرْفيل الَّذينَ تَعاقَبوا عَلى القَصْرِ خِلالَ الثَّلاثِمِائَةِ سَنَةٍ المُنْصَرِمَةِ. أَخَذَ هولْمز يَنْتَقِلُ مِنْ لَوْحَةٍ إلى لَوْحَةٍ، يَتَأَمَّلُ كُلًّا مِنْها تَأَمُّلًا دَقيقًا. ثُمَّ عادَ إلى إحْداها حامِلًا مَعَهُ مِصْباحًا وراحَ يَتَأَمَّلُها بِعِنايَةٍ فائِقَةٍ - ذَلِكَ كانَ السّير هيوجو



الشِّرِّيرَ الَّذي بَدَأَتِ الأُسْطورَةُ مَعَهُ.

«انْظُرْ إِلَيْهِ، يا واطْسُن.»

فَعَلْتُ ما طُلِبَ إِلَيَّ، فلاحَظْتُ الشَّفَتَيْنِ الرَّقيقَتَيْنِ والعَيْنَيْنِ البارِدَتَيْنِ والوَجْهَ الجامِدَ.





ثُمَّ قالَ هولْمز: «اُنْظُرْ ثانِيَةً!»

وَقَفَ على كُرْسِيٍّ وَوَضَعَ يَدَهُ على القُبَّعَةِ العَريضَةِ والشَّعْرِ الجَعْدِ، بِحَيْثُ لَمْ يَعُدْ بادِيًا إلّا الوَجْهُ.

تَمَلَّكَتْني الدَّهْشَةُ، فَقَدْ لاحَظْتُ الشَّبَهَ القَوِيَّ بَيْنَ وَجْهِ السّير هيوجو وَوَجْهِ ستابِلْتن، وصِحْتُ: «كَأَنَّهُ ستابِلْتُن!»

ضَحِكَ هولْمز وقالَ: «نَعَمْ، لا شَكَّ أَنَّ في ستابِلْتُن دَمًا مِنْ آلِ باسْكِرْڤيل. ولَكَ الآنَ أَنْ تُخَمِّنَ سَبَبَ عَداوَتِهِ لِلسّير هَنْري. عَلى أَيِّ حالٍ، فَإِنَّني سَأُوقِعُ بِهِ مساءَ غَدٍ. ولا تَقُلْ كَلِمَةً مِمّا عَرَفْتَ الآنَ للسّير هَنْري.»

اِسْتَيْقَظَ هولْمز في صَباحِ اليَوْمِ التّالي باكِرًا، وقَدْ بَدا عَلَيْهِ الاِنْشِراحُ. وكانَ السّير هَنْري مَدْعُوًّا لِزيارَةِ ستابِلْتُن ذَلِكَ المَساءَ. فَسَأَلَنا إنْ كُنّا أَنا وهولْمز نَرْغَبُ في مُرافَقَتِهِ. أَجابَ هولْمز: «لا نَسْتَطيعُ مُرافَقَتَكَ، فَعَلَيْنا أَنْ نَعودَ إلى لَنْدَن هَذا المَساءَ لِأَمْرٍ هامٍّ.»

فوجِئْتُ بِجَوابِ هولْمز، لَكِنّي لَمْ أَقُلْ شَيْئًا. بَدَتْ خَيْبَةُ الأَمَلِ عَلى السّير هَنْري وَهْوَ يَقولُ: «ودَدْتُ لَوْ أَذْهَبُ إلى لَنْدَن مَعَكُما.»



أَسْرَعَ هولْمز يقولُ: «بَلْ عَلَيْكَ البَقاءُ هُنا. تَذَكَّرْ أَنَّكَ وَعَدْتَ بِتَنْفيذِ تَعْليماتي كُلِّها دونَ سُؤالٍ عَنِ الأَسْبابِ. أُريدُكَ أَنْ تَذْهَبَ إلى صَديقِكَ ستابِلْتُن هَذا المَساءَ، كَما كانَ مُقَرَّرًا. وبَعْدَ انْتِهاءِ الزِّيارَةِ تَعودُ لَيْلًا عَبْرَ المَمَرِّ الضَّيِّقِ كَثيرِ الأَشْجارِ. أَعْلِمْ ستابِلْتُن عَنْ رَغْبَتِكَ في أَخْذِ ذَلِكَ المَمَرِّ.»

أَجابَ السّير هَنْري: «لَكِنَّكَ تَطْلُبُ مِنّي الآنَ عُبورَ الطَّريقِ الَّتي كُنْتَ نَهَيْتَني عَنْ عُبورِها نَهْيًا قاطِعًا.»

قالَ هولْمز بِشَيْءٍ مِنَ الإِصْرارِ: «ثِقْ بي. المَمَرُّ هَذِهِ اللَّيْلَةَ سَيَكونُ آمِنًا. أَعْرِفُ أَنَّ الأَمْرَ يَحْتاجُ شَجاعَةً عَظيمَةً. عَلَيْكَ أَلّا تَخْرُجَ عَنِ المَمَرِّ الضَّيِّقِ كَثيرِ الأَشْجارِ الَّذي يَصِلُ بَيْنَ بَيْتِ ستابِلْتُن والقَرْيَةِ. حافِظْ عَلى طَريقِكَ تِلْكَ أَيًّا كانَتِ الظُّروفُ.»
لَمْ تَكُنْ حَيْرَتي تَقِلُّ عَنْ حَيْرَةِ السّير هَنْري، لَكِنّي بَقيتُ ساكِتًا.

بَعْدَ نَحْوِ ساعَتَيْنِ غادَرْنا قَصْرَ باسْكِرْڤيل مُتَّجِهَيْنِ إلى مَحَطَّةِ السِّكَكِ الحَديدِيَّةِ. وعِنْدَ رَصيفِ القِطار طَلَبَ هولْمز مِنْ سائِقِ العَرَبَةِ الَّتي أَقَلَّتْنا أَنْ يَعودَ. وقالَ لي، بَعْدَ أَنْ رَحَلَ السّائِقُ، إِنَّنا لَنْ نُغادِرَ البَلْدَةَ. وقَدْ كانَتْ خُطَّتُهُ تَقْضي أَنْ يَتَوَهَّمَ ستابِلْتُن أَنَّنا عُدْنا إلى لَنْدَن، فَيَشْعُرَ أَنَّهُ مُطْلَقُ اليَدِ في مُهاجَمَةِ السّير هَنْري. لَمْ أُفاجَأْ بِهَذِهِ السِّرِّيَّةِ لِأَنَّني أَعْلَمُ أَنَّ هولْمز نادِرًا ما يَكْشِفُ خُطَطَهُ لِإِنْسانٍ.





تَناوَلْنا شَيْئًا مِنَ الطَّعامِ، وتَحَدَّثْنا بِأَمْرِ ستابِلْتُن. وأَراني هولْمز صُوَرًا، وإِفاداتِ شُهودٍ ووثائِقَ أُخْرى. وفي تِلْكَ الأَوْراقِ والوَثائِقِ إِثْباتٌ عَلى أَنَّ ستابِلْتُن اتَّخَذَ لَهُ أَسْماءً مُسْتَعارَةً كَثيرَةً.

اِسْتَأْجَرَ هولْمز بَعْدَ ذَلِكَ عَرَبَةً وَسائِقًا. ولَمْ يَكُنْ قَدْ ذَكَرَ لي بَعْدُ شَيْئًا عَنِ الجِهَةِ الَّتي يَنْوي الذَّهابَ إِلَيْها أَوْ ما يُمْكِنُ أَنْ نَتَوَقَّعَهُ مِنْ أَحْداثٍ. مَضَتِ العَرَبَةُ في الظَّلامِ. ولَمْ نَكُنْ قادِرَيْنِ، بِوُجودِ السّائِقِ، أَنْ نَتَحَدَّثَ بِحُرِّيَّةٍ. وأَحْسَسْتُ بِقَلْبي يَخْفِقُ بِقُوَّةٍ حينَ رَأَيْتُ نَفْسي أَعودُ إِلى مِنْطَقَةِ البَراري.

أَنْزَلَنا السّائِقُ قَريبًا مِنْ قَصْرِ باسْكِرْفيل، فاسْتَدَرْنا ناحِيَةَ بَيْتِ ستابِلْتُن وبَدَأْنا نَمْشي. بَدَتِ الطَّريقُ طَويلَةً. وكانَ يُظَلِّلُ المُسْتَنْقَعاتِ القَريبَةِ ضَبابٌ كَثيفٌ. ثُمَّ تَوَقَّفَ هولْمز عَلى بُعْدِ مِائَتَيْ مِتْرٍ مِنْ بَيْتِ ستابِلْتُن، وقالَ: «هَذا مَكانٌ مُلائِمٌ، فَالصُّخورُ تُخْفينا.»





اِخْتَبَأْنا في فَجْوَةٍ بَيْنَ الصُّخورِ، لَكِنْ رُغْمَ أَنّا كُنّا قادِرَيْنِ عَلى رُؤْيَةِ البَيْتِ فإنَّنا كُنّا أَبْعَدَ مِنْ أَنْ نَعْرِفَ ما يَجْري في داخِلِهِ.

بَعْدَ دَقائِقَ طَلَبَ مِنّي هولْمز أَنْ أَزْحَفَ ناحِيَةَ البَيْتِ لِأَسْتَكْشِفَ المَكانَ عَنْ كَثَبٍ. اِقْتَرَبْتُ مِنَ البَيْتِ ورُحْتُ أَنْظُرُ داخِلَهُ عَبْرَ نافِذَةٍ مَكْشوفَةٍ.



كانَ ستابِلْتُن يَتَحَدَّثُ، في حين بَدا السّير هَنْري شاحِبًا. ولَعَلَّهُ كانَ يُفَكِّر في طريقِ العَوْدَةِ المُوْحِشَةِ عَبْرَ البَراري.

في هَذِهِ الأَثْناءِ تَرَكَ ستابِلْتُن الغُرْفَةَ وخَرَجَ مِنَ المَنْزِلِ واتَّجَهَ إلى سَقيفَةٍ مُجاوِرَةٍ. ثُمَّ سُمِعَتْ أَصْواتُ حَرَكَةٍ واضْطِرابٍ تَأْتي مِنْ داخِلِ السَّقيفَةِ. وما لَبِثَ ستابِلْتُن أَنْ خَرَجَ وأَقْفَلَ بابَ السَّقيفَةِ وَراءَهُ. فَزَحَفْتُ عائِدًا إلى هولْمز لِأُنْبِئَهُ بِما رَأَيْتُ.

فِي هَذِهِ الأَثْناءِ، بَدَأَ الضَّبابُ الَّذي كانَ يُخَيِّمُ عَلى المُسْتَنْقَعاتِ المُجاوِرَةِ يَتَّجِهُ نَحْوَنا. فقالَ هولْمز: «هَذا أَمْرٌ مُقْلِقٌ، يا واطْسُن. الضَّبابُ يَتَّجِهُ نَحْوَنا. عَلى السّير هَنْري أَنْ يَتْرُكَ البَيْتَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الضَّبابُ إِلى المَمَرِّ الضَّيِّقِ كَثيرِ الأَشْجارِ. حَياتُهُ تَتَوَقَّفُ عَلى ذَلِكَ. لا يَصِحُّ أَنْ يَتَأَخَّرَ الآنَ، فالسّاعَةُ جاوَزَتِ العاشِرَةَ.»

مَعَ كُلِّ دَقيقَةِ انْتِظارٍ كانَ الضَّبابُ يَزْحَفُ ناحِيَتَنا. ووَصَلَتْ طَلائِعُ الضَّبابِ إِلى طَرَفِ بُسْتانِ المَنْزِلِ، ولَفَّتْ بِبُطْءٍ الأَشْجارَ. فقالَ هولْمز: «إن لَمْ يَخْرُجِ الآنَ فَسَوْفَ نَفْقِدُهُ. عَلَيْنا أَنْ نَرْتَدَّ إِلى



الوَراءِ إلى مَوْضِعٍ أَكْثَرَ ارْتِفاعًا مِنْ هَذا المَكانِ.» وكانَ الضَّبابُ لا يَزالُ يَقْتَرِبُ بِبُطءٍ. اِنْحَنى هولْمز ووَضَعَ أُذُنَهُ على الأَرْضِ، وقالَ: «أَظُنُّ أَنّي أَسْمَعُهُ يَخْرُجُ.»

ثُمَّ جاءَني الصَّوْتُ أَنا أَيْضًا. وراحَ وَقْعُ الخُطُواتِ يَعْلو شَيْئًا فَشَيْئًا، فَجَثَمْنا بَيْنَ الصُّخورِ نُحَدِّقُ عَبْرَ الضّبابِ. بَرَزَ (خَرَج وظَهَرَ) السّير هَنْري مِنَ الضَّبابِ، يَمْشي مَشْيًا سَريعًا. تَجاوَزَنا، وراحَ بَيْنَ الحينِ والحينِ يَلْتَفِتُ كَالخائِفِ إلى وراء. وهَمَس هولْمز بانْفِعالٍ: «إنَّهُ آتٍ!»



عَلى بُعْدِ خَمْسينَ مِتْرًا مِنّا انْشَقَّ الضَّبابُ عَنْ وَحْشٍ مُرْعِبٍ. قَفَزْتُ واقِفًا. لَقَدْ كانَ كَلْبًا أَسْوَدَ ضَخْمًا. وبَدا كَأَنَّ لَهَبًا يَتَّقِدُ في فَمِهِ وحَوْلَ فَكَّيْهِ وعَيْنَيْهِ. لَمْ أَرَ في حَياتي مِثْلَ ذَلِكَ المَشْهَدِ الشَّيْطانِيِّ. راحَ الوَحْشُ يُطارِدُ صَديقَنا السّير هَنْري في قَفَزاتٍ واسِعَةٍ جُنونِيَّةٍ. وكانَتِ الصَّدْمَةُ قَدْ أَذْهَلَتْنا بِحَيْثُ تَرَكْنا الوَحْشَ



يَمُرُّ مِنْ أَمامِنا. ثُمَّ تَمالَكْنا أَعْصابَنا وأَطْلَقْنا أَنا وهولْمز النّارَ مِنْ مُسَدَّسَيْنا في وَقْتٍ واحِدٍ. فأَصْدَرَ الوَحْشُ صَرْخَةَ أَلَمٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَوَقَّفْ.

كانَ السّير هَنْري يَلْتَفِتُ في ذُعْرٍ يائِسٍ ويَنْظُرُ إلى ذَلِكَ الوَحْشِ الَّذي يُطارِدُهُ.



لَكِنَّ صَرْخَةَ الأَلَمِ الَّتي صَدَرَتْ عَنِ الكَلْبِ أَنْبَأَتْنا أَنَّهُ مَخْلوقٌ حَيٌّ ولَيْسَ شَبَحًا شَيْطانِيًّا. رَكَضَ هولْمز وراءَ الكَلْبِ وسَمِعْنا اسْتِغاثَةَ السّير هَنْري. فَقَدْ رَماهُ الوَحْشُ أَرْضًا وكانَ يُوْشِكُ أَنْ يُنْشِبَ أَنْيابَهُ في عُنُقِهِ. وَصَلَ هولْمز في هَذِهِ اللَّحْظَةِ وأَفْرَغَ في جَسَدِ الوَحْشِ خَمْسَ رَصاصاتٍ، فانْقَلَبَ على ظَهْرِهِ وضَرَبَ



الهَواءَ بِمَخالِبِهِ ثُمَّ ارْتَمى ساكِنًا. اِنْحَنَيْتُ في حَذَرٍ، والمُسَدَّسُ في يَدي، ولَكِنَّ الوَحْشَ كانَ قَدْ ماتَ.

كانَ قَدْ أُغْمِيَ عَلى السّير هَنْري، لَكِنّ أَجْفانَهُ كانَتْ تَرْتَعِشُ. مَسَحْتُ وَجْهَهُ بِالماءِ فاسْتَفاقَ، وكانَ أَوَّلَ ما قالَهُ:

«يا إِلَهي! ما كانَ ذاكَ؟»

قالَ هولْمز: «أَيًّا كانَتْ طَبيعَتُهُ، فإِنَّهُ مَيِّتٌ. شَبَحُ باسْكِرْڤيل ماتَ إلى الأَبَدِ.»

كانَ حَجْمُ الوَحْشِ ضَخْمًا، أَشْبَهَ بِأَسَدٍ صَغيرٍ. وقَدْ جاءَ نَتيجَةَ تَزاوُجِ أَشَدِّ أَنْواعِ الكِلابِ شَراسَةً. وبَدا أَنَّ الرَّأْسَ والفَكَّيْنِ تُضيءُ بِنورٍ مُزْرَقٍّ. وَضَعْتُ يَدي عَلى رَأْسِهِ، ثُمَّ رَفَعْتُها فَرَأَيْتُ يَدِيَ أَيْضًا تُضيءُ في الظَّلام بِنورٍ أَزْرَق. قُلْتُ: «إِنَّهُ فوسْفورٌ!»

رَدَّ هولْمز «إِنَّهُ مَزيجٌ فوسْفورِيٌّ ذَكِيُّ الإِعْدادِ.»

عَرَفْنا أَنَّ صَوْتَ الرَّصاصِ لا بُدَّ قَدْ نَبَّهَ ستابِلْتُن إلى انْكِشافِ أَمْرِهِ. عُدْنا ثَلاثَتُنا إلى بَيْتِهِ وفَتَّشْناهُ غُرْفَةً غُرْفَةً، لَكِنَّ الطَّريدَةَ كانَتْ قَدْ أَفْلَتَتْ. كانَتْ خُطَّةُ هولْمز ناجِحَةً، إِذْ لَمْ يَكُنْ أَمامَ ستابِلْتُن مِنْ مَهْرَبٍ سِوى طَريقِ المُسْتَنْقَعاتِ المُجاوِرَةِ. ولَمّا كانَ مِنَ العَبَثِ مُحاوَلَةُ العُثورِ عَلَيْهِ في الضَّبابِ عُدْنا إلى قَصْرِ باسْكِرْڤيل. وفي طَريقِ العَوْدَةِ، كَشَفَ هولْمز للسّير هَنْري عَنْ مَراحِلِ مُؤامَرَةِ ستابِلْتُن.



فِي صَباحِ اليَوْمِ التّالي انْحَسَرَ الضَّبابُ، فقادَنا الدّكْتور مورْتِمَر إلى مَمَرٍّ في قَلْبِ المُسْتَنْقَعاتِ. أَحْسَسْنا بِرائِحَةِ العَفَنِ الصّادِرَةِ عَنِ القَصَبِ المُتَعَفِّنِ والنَّباتات المائِيَّةِ. وحَدَثَ أَنْ غُصْنا مَرّاتٍ في المياهِ المُوْحِلَةِ حَتّى خُصورِنا.



رَأَيْنا ما يُشيرُ إلى أَنّ أَحَدًا مَرَّ قَبْلَنا في تِلْكَ الطَّريقِ. ثُمَّ عَثَرْنا عَلى قُبَّعَةِ ستابِلْتُن، الَّتي لا بُدَّ أَنَّهُ أَضاعَها لَيْلَةَ أَمْسِ أَثْناءَ هَرَبِهِ في الضَّبابِ. وكانَ ذَلِكَ آخِرَ ما رَأَيْنا مِنْ آثارِهِ. لا شَكَّ أَنَّ ستابِلْتُن وَقَعَ في رِمالِ ذَلِكَ المُسْتَنْقَعِ المُتَحَرِّكَةِ وأَنَّهُ دُفِنَ هُناكَ إلى الأَبَدِ.

وَجَدْنا في كوخٍ قَديمٍ، كانَ ستابِلْتُن يُخْفي فيهِ وَحْشَهُ، سِلْسِلَةً قَوِيَّةً جِدًّا، وكَوْمَةً مِنَ العِظامِ، وتَنَكَةً (وعاءً مِنَ الصَّفيحِ) تَحْوي المَزيجَ الفوسْفوريَّ الَّذي كانَ يُدْهَنُ بِهِ رَأْسُ الوَحْشِ لِيَبْدُوَ وَكَأَنَّهُ شَبَحٌ. لا شَكَّ أَنَّ هَيْئَةَ الوَحْشِ تِلْكَ قَدْ قَتَلَتِ السّير تشارلْز رُعْبًا.

لَمْ يَجْرُؤْ ستابِلْتُن عَلى الاِحْتِفاظِ بِالكَلْبِ في بَيْتِهِ إلّا في اللَّيْلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ خَطَّطَ فيهِما لِمُهاجَمَةِ السّير تشارلْز والسّير هَنْري. لَقَدْ خَبَّأَهُ في مَكانٍ مُنْعَزِلٍ مِنَ المُسْتَنْقَعاتِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ كَتْمَ صَوْتِهِ.

كانَ عَدَدٌ مِنَ النِّقاطِ لا يَزالُ غامِضًا. بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ، وفي أَثْناءِ رِحْلَةِ القِطارِ العائِدِ بِنا إلى لَنْدَن، شَرَحَ لي هولْمز بَعْضَ الأُمورِ.

لَقَدْ كانَ ستابِلْتُن سَليلَ أُسْرَةِ باسْكِرْڤيل. ولَمْ نَكُنْ نَتَوَقَّعُ مِثْلَ هَذا الأَمْرِ لأَنَّ الدّكْتور مورْتِمرَ كانَ قَدْ أَخْبَرَنا، مُنْذُ البَدْءِ، أَنَّ السّير هَنْري هُوَ الوَحيدُ الباقي عَلى قَيْدِ الحَياةِ مِنْ سُلالَةِ تِلْكَ الأُسْرَةِ.

والواقِعُ أَنَّ شَقيقَ السّير تشارلْز، وكانَ يُسَمّى رودْجَر، لَمْ يَمُتْ في البرازيلِ بِوَباءِ الكوليرا، كَما كانَ قَدْ أُشيعَ. ثُمّ إِنَّهُ تَزَوَّجَ وأَنْجَبَ صَبِيًّا. ذَلِكَ الصَّبِيُّ هُوَ الَّذي عَرَفْناهُ فيما بَعْدُ بِاسْمِ ستابِلْتُن.

وَجَدَ ستابِلْتُن، عِنْدَ عَوْدَتِهِ إلى إِنْجِلترا، أَنَّ شَخْصًا أَوِ اثْنَيْنِ يَحولانِ بَيْنَهُ وبَيْنَ مُمْتَلَكاتِ أُسْرَةِ باسْكِرْڤيل الواسِعَةِ.

لَمْ يَكُنْ في بِدايَةِ الأَمْرِ يَعْرِفُ كَيْفَ سَتكونُ خُطَّتُهُ. فابْتَدَأَ بِأَنِ اتَّخَذَ لَهُ سَكَنًا مُجاوِرًا لِقَصْرِ باسْكِرْڤيل. ثُمَّ كانَتْ خُطْوَتُهُ الثّانِيَةُ أَنْ يَتَقَرَّبَ إلى السّير تشارلْز.

وحينَ حَكى لَهُ السّير تشارلْز أُسْطورةَ لَعْنَةِ باسْكِرْڤيل، راحَ ستابِلْتُن يُفَكِّرُ بِطَريقَةٍ يَجْعَلُ فيها مِنَ الأُسْطورَةِ حَقيقَةً واقِعَةً.

ولَقَدْ عَرَفَ مِنْ صَديقٍ آخَرَ هُوَ الدّكْتور مورْتِمَر أَنَّ السّير تشارلْز ضَعيفُ القَلْبِ، وأَنَّ أَيَّ صَدْمَةٍ عَنيفَةٍ قَدْ تُودي بِحَياتِهِ. فاشْتَرى مِنْ لَنْدَن كَلْبًا، كان أَشَدَّ الكِلابِ شَراسَةً، وأَضْخَمَها حَجْمًا، وأَكْثَرَها تَوَحُّشًا.



لا يَعْلَمُ أَحَدٌ عَدَدَ المَرّاتِ الَّتي قَبَعَ (تَخَفَّى عَنِ الأَنْظارِ) فيها ستابِلْتُن، إلى جانِبِ وَحْشِهِ، وَسْطَ الظَّلامِ يَنْتَظِرُ عَبَثًا. ثُمَّ جاءَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الَّتي خَرَجَ فيها السّير تشارلْز فَأَطْلَقَ ستابِلْتُن وَحْشَهُ. ورَكَضَ السّير تشارلْز مَذْعورًا، لَكِنَّ قَلْبَهُ خانَهُ. واسْتَدْعى ستابِلْتُن وَحْشَهُ وعادَ بِهِ إلى المُسْتَنْقَعاتِ.

ولَعَلَّ ستابِلْتُن لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ آنَذاكَ شَيْئًا عَنْ وَريثٍ آخَرَ مِنْ آلِ باسْكِرْڤيل يَعيشُ في كَنَدا. وإذا صَحَّ هَذا الافْتِراضُ فلا شَكَّ أَنَّ ظُهورَ السّير هَنْري سَبَّبَ صَدْمَةً لستابِلْتُن. ذَلِكَ يَعْني أَنَّهُ كانَ عَلَيْهِ أَنْ يُخَطِّطَ لِجَريمَةِ قَتْلٍ أُخْرى.

كانَ هولْمز، حينَ عَثَرْتُ عَلَيْهِ مُخْتَبِئًا في البَراري، قَدْ كَشَفَ الجانِبَ الأَكْبَرَ مِنَ القَضِيَّةِ. لَكِنْ كانَ عَلَيْهِ أَنْ يُمْسِكَ ستابِلْتُن مُتَلَبِّسًا بِالجُرْمِ المَشْهودِ، وإلّا فلا يُمْكِنُ إثْباتُ دَليلٍ ضِدَّهُ. فكانَ لا بُدَّ مِنِ اسْتِعْمالِ السّير هَنْري طُعْمًا يَدْفَعُ ستابِلْتُن إلى العَمَلِ.







كانَ أَمْرٌ واحِدٌ لا يَزالُ يُحَيِّرُني. لَوْ تَمَكَّنَ ستابِلْتُن مِنْ قَتْلِ السّير هَنْري، فَكَيْفَ كانَ سَيُطالِبُ بِمُمْتَلَكاتِ أُسْرَةِ باسْكِرْفيل دونَ الكَشْفِ عَنْ شَخْصِيَّتِهِ الحَقيقِيَّةِ؟ فَقَدْ عاشَ في الجِوارِ سَنَتَيْنِ مُنْتَحِلًا اسْمًا مُسْتعارًا، وفي وَقْتٍ حَدَثَتْ فيه وفاتانِ مَشْبوهَتانِ.

حَتّى هولْمز لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ جوابًا قاطِعًا عَنْ هَذا التَّساؤلِ. مِنَ المُحْتَمَلِ أَنَّ ستابِلْتُن كانَ سَيَعودُ إلى البَرازيلِ دونَ ضَجيجٍ، لِيُطالِبَ مِنْ هُناكَ بِمُمْتَلَكاتِ الأُسْرَةِ مُتَّخِذًا اسْمَهُ الحَقيقِيَّ. ولَنْ يَكونَ مُحْتاجًا عِنْدَئِذٍ إلى العَوْدَةِ إلى إنْجِلْترا.

ذَلِكَ الرَّجُلُ الشِّرّير لَمْ تَكُنْ لِتُعْوِزَهُ الحيلَةُ.



تَسْعى مَكْتَبَةُ لُبْنان مِنْ خِلالِ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ إلى تَعْريفِ الفَتى العَرَبِيِّ بِروائِعِ الأَدَبِ العالَمِيِّ، وإعْدادِهِ لِلدُّخولِ، فيما بَعْدُ، في عالَمِ القِصَصِ الخالِدَةِ مِنْ بابِهِ الواسِعِ. إنَّنا نَعْتَقِدُ أَنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنائِنا أَنْ يُكَوِّنوا فِكْرَةً صَحيحَةً شامِلَةً عَنْ نِتاجِ القِصَصِ الذّائِعَةِ الصِّيتِ في مُخْتَلِفِ أَنْحاءِ الأَرْضِ.

عَلى أَنَّنا نَثِقُ أَنَّ هَذِهِ القِصَصَ تَصْلُحُ، بِالشَّكْلِ الَّذي نُقَدِّمُها فيهِ، لِلْكِبارِ أَيْضًا، لِأَنَّنا حَرِصْنا عَلى أَلّا نَنْتَقِصَ مِنْ جَوْهَرِ الفِكْرَةِ الَّتي يَقومُ عَلَيْها العملُ ومِنْ بناءِ الشَّخْصِيّاتِ كما أرادَها المُؤَلِّفونَ.

وحَرِصْنا عَلى المُحافَظَةِ عَلى عَناوينِ الكُتُبِ الأَصْلِيَّةِ وكَذَلِكَ عَلى أَسْماءِ الأَعْلامِ والأماكِنِ، كَما وَرَدَتْ في الأَصْلِ، رَغْبَةً في إعْطاءِ صورَةٍ حَقيقِيَّةٍ عَنِ الجَوِّ العامِّ لِلْقِصَصِ، مِنْ حَيْثُ المَكانُ والأَوْضاعُ الاِجْتِماعِيَّةُ والأَحْداثُ التاريخِيَّةُ، وخِدْمَةً لِلْهَدَفِ الَّذي نَسْعى إلَيْهِ وهُوَ تَمْهيدُ الطَّريقِ لِلتَّعَرُّفِ إلى الأَدَبِ العالَمِيِّ. على أَنَّنا

تجنَّبْنا الخَوْضَ في تَفاصيلِ الأَسْماءِ الَّتي لا تَتَعَلَّقُ مُباشَرَةً بِصُلْبِ المَوْضوعِ ولا تُؤَثِّر عَلى سَيْرِ الأَحْداثِ، وذلِكَ لِكَيْ لا نُرْبِكَ القارِئَ العَرَبِيَّ بأسْماءٍ ثانَوِيَّةِ الأَهَمِّيَّةِ، غَريبَةِ اللَّفْظِ قَليلَةِ التَّواتُرِ.

وتَمْتازُ هَذِهِ القِصَصُ كُلُّها بِأَنَّها شَديدَةُ التَّشْويقِ، وتَقومُ في غالِبِها عَلى المُغامَراتِ المُثيرَةِ. وأَكْثَرُ هذِهِ القِصَصِ المُخْتارَةِ كُتِبَتْ أَصْلًا لِتُرضيَ جُمْهورَ الشَّبابِ، وَهِيَ مِنْ هَذِهِ النّاحِيَةِ تُرْضي مَشاعِرَهُمْ ومَبادِئَهُمْ وحُبَّهُمْ لِلاِنْطِلاقِ واكْتِشافِ المَجْهولِ.

إنَّ هَذِهِ القِصَصَ جَميعَها، وإنْ تَكُنْ في غالِبِها تَقومُ عَلى حُبِّ المُغامَرَةِ، تَتَناوَلُ أَصْدَقَ المَشاعِرِ الإنْسانِيَّةِ، وتُصَوِّرُ كِفاحَ الإنْسانِ لِتَحْقيقِ مُثُلِهِ العُلْيا دونَ أنْ يَعْبأَ بالتَّضْحِياتِ.

وزُوِّدَتْ كُتُبُ السِّلْسِلَةِ جَميعُها بِمُقدِّماتٍ تُعَرِّفُ بالمُؤَلِّفِ كما زُوِّدَتْ بِرُسومٍ مُلَوَّنَةٍ رائِعَةٍ تُضْفي جَوًّا مِنَ السِّحْرِ على أَحْداثِ القِصَصِ، وتُصَوِّرُ الخَلْفِيّاتِ الاِجْتِماعِيَّةَ والتارِيخِيَّةَ أَصْدَقَ تَصْويرٍ.

طُبع في إنجلترا ١٩٨٥



Series 654 Arabic